

# الأخلاق والوحي

## جدل الفلسفة وحقيقة السماء

### تأليف

دكتور محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقير والمؤلف القانوني  
والمحاضر الدولي في القانون

### الإهداء

إلى روح أمي وأبي الطاهرة، منبع الرحمة ومدرسة  
الفضيلة، داعياً الله لهما بالرحمة الواسعة والجنات  
الخالدة.

وإلى ابنتي الحبيبة وقرّة عيني صبرينال المصرية  
الجزائرية، زهرة الحياة وجمال الوجود، التي تجمع بين

رقة شط المتوسط وشموخ جبال الأوراس، لتكون شاهدة على أن الإيمان هو أجمل ما يزين الإنسان.

## المقدمة

إن الجدل حول مصدر الأخلاق ومنبعها هو من أعرق النقاشات الفكرية في تاريخ البشرية، حيث انقسم المفكرون والفلاسفة إلى معسكرين متعارضين. معسكر يرى أن العقل الإنساني والفطرة الاجتماعية كافيان لتوليد منظومة أخلاقية رصينة دون حاجة إلى وحي سماوي أو دين منظم، ومعسكر آخر يجزم بأن الأخلاق بدون مرجعية دينية هي بناء على شفا جرف هار، عرضة للانحيار عند أول اختبار للمصالح والغرائز. يهدف هذا الكتاب إلى خوض غمار هذا الجدل بعمق ونزاهة علمية، فنبداً باستعراض حجج الفلاسفة والمفكرين الذين دافعوا عن استقلالية الأخلاق عن الدين، نحلل أسسهم وننقب في نقاط قوة وضعف استدلالهم، لننتقل بعد ذلك إلى التفكيك النقدي لتلك الحجج وإثبات الحقيقة الأرسخ وهي أن الأخلاق الحقيقية الثابتة الملزمة لا يمكن أن تقوم إلا على

أساس ديني سماوي. إن هذه الرحلة الفكرية ليست مجرد تنظير أكاديمي، بل هي بحث عن ضالة الإنسانية التائهة في متاهات النسبية، سعياً لإثبات أن الدين هو الحاضن الوحيد للفضيلة والضمن لاستمرارها.

## الفصل الأول

نظرية العقل الأخلاقي عند كانط والاستقلال عن الوحي

يقف إيمانويل كانط في طليعة الفلاسفة الذين حاولوا تأسيس أخلاق مستقلة تماماً عن الدين، مرتكزة على العقل العملي المحض. يرى كانط أن الواجب الأخلاقي ينبع من داخل العقل الإنساني نفسه عبر ما أسماه الأمر القطعي، وهو مبدأ عقلي يأمر الإنسان بفعل الخير لمجرد أنه خير، وبغض النظر عن العواقب أو الثواب والعقاب الإلهي. حسب هذه الرؤية، فإن فعل الخير يجب أن يكون نابعاً من احترام للقانون الأخلاقي الداخلي، وليس خوفاً من نار جهنم أو طمعاً في

جنات النعيم، لأن الفعل المشوب برغبة في المكافأة يفقد قيمته الأخلاقية الحقيقية. يستند كانط إلى فكرة أن العقل البشري يمتلك قدرة فطرية على إدراك الكونيات الأخلاقية مثل الصدق والعدل، وأن هذه المبادئ تكون صحيحة وملزمة حتى لو لم يوجد إله. يحاول هذا التيار إثبات أن تقديس الأخلاق يأتي من قداسة العقل الإنساني وقدرته على التشريع الذاتي، مما يجعل الإنسان سيد أخلاقه دون حاجة لوصاية دينية خارجية.

## الفصل الثاني

### الأخلاق التطورية والنظرة الداروينية للسلوك الاجتماعي

تقدم النظرية التطورية منظوراً مختلفاً تماماً، حيث تحاول تفسير نشوء الأخلاق كآلية بيولوجية واجتماعية للبقاء وليس كحقيقة ميتافيزيقية مقدسة. يرى أنصار هذا الاتجاه، متأثرين بأفكار تشارلز داروين وعلماء الأحياء التطوريين، أن السلوكيات التي نسميها أخلاقية

مثل التعاون والإيثار ومساعدة الضعيف، تطورت تدريجياً لأنها تضمن بقاء القبائل والجماعات البشرية. فالجماعة التي يتعاون أفرادها ويحمي بعضهم بعضاً لديها فرص أكبر للبقاء والتكاثر مقارنة بالجماعة الأنانية المتنافرة. وفق هذه الرؤية، فإن الضمير الأخلاقي هو مجرد نتاج طبيعي للانتخاب الطبيعي، تطور لخدمة المصلحة الجماعية وضمان استمرار النوع البشري. يستنتج أصحاب هذا الرأي أن الأخلاق موجودة في البشر بل وفي بعض الحيوانات قبل ظهور الأديان المنظمة، وبالتالي فهي ظاهرة طبيعية مستقلة عن الوحي، ويمكن فهمها ودراستها بعيداً عن أي إطار ديني، بل وقد تتطور وتتغير بتطور الظروف البيئية والاجتماعية.

## الفصل الثالث

النفعية ومبدأ السعادة الأكبر كأساس أخلاقي وضعي

تمثل المدرسة النفعية، وعلى رأسها جيريمي بنتام وجون ستيوارت ميل، اتجاهاً فلسفياً آخر يسعى لفصل الأخلاق عن الدين وربطها بالمنفعة المادية

المحضة. تركز هذه النظرية على مبدأ أساسي وهو أن الفعل الصحيح هو ذلك الفعل الذي يحقق أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس. هنا يصبح المعيار الأخلاقي حسابياً كمياً بحتاً، يقاس بنتائج الفعل الملموسة في الدنيا، دون أدنى اعتبار لأوامر إلهية أو نواهي سماوية. إذا كان الكذب يحقق سعادة عامة أكبر من الصدق في موقف معين، فإن المنطق النفعي قد يبرر الكذب أخلاقياً. يجادل proponents هذا الاتجاه بأن الأخلاق الدينية غالباً ما تكون جامدة وغير مرنة، بينما الأخلاق النفعية عملية وقابلة للتكيف مع متطلبات العصر وتعقيدات الحياة الحديثه أن الإنسان يستطيع تحديد ما هو نافع وما هو ضار بعقله وتجربته، مما يجعل المرجعية الدينية زائدة عن الحاجة أو حتى معيقة للتقدم الأخلاقي في بعض الأحيان.

## الفصل الرابع

الوجودية والحرية المطلقة في خلق القيم

تذهب الفلسفة الوجودية، ممثلة في فكر جان بول

سارتر وفريدريك نيتشه، إلى أبعد من ذلك حين تعلن موت الإله وتحرر الإنسان من أي قيود عليا. يرى نيتشه أن الأخلاق الدينية، وخاصة الأخلاق المسيحية، هي أخلاق العبيد التي تكبل إرادة الإنسان القوي، ويدعو إلى إعادة تقييم كل القيم وخلق أخلاق جديدة ينحتها الإنسان الحر بنفسه. أما سارتر فيؤكد أن الوجود يسبق الماهية، مما يعني أن الإنسان موجود أولاً ثم يحدد ماهيته وقيمه باختياراته الحرة المطلقة. حسب هذا المنظور، لا توجد قيم أخلاقية جاهزة في السماء أو مكتوبة في ألواح مقدسة، بل الإنسان هو المخترع الوحيد للقيم وهو المسؤول الوحيد عنها. الحرية المطلقة هنا تعني أن الإنسان حر في أن يخلق أخلاقه الخاصة، ولا حجة له في الرجوع إلى دين أو تقليد. هذه الرؤية تجعل الأخلاق مشروعاً فردياً إبداعياً، حيث يكون كل إنسان نبياً لأخلاقه الخاصة، مما يلغي الحاجة تماماً لأي مرجعية دينية جامعة.

## الفصل الخامس

العقد الاجتماعي والأساس التعاقدية للأخلاق

قدم فلاسفة العقد الاجتماعي مثل توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو نظرية ترى أن الأخلاق والقوانين هي نتاج اتفاق تعاقدى بين الأفراد للخروج من حالة الفوضى الطبيعية. يفترض هوبز أن حالة الطبيعة هي حرب الكل ضد الكل، حيث لا مكان للأخلاق أو العدالة، وللهرب من هذا الجحيم اتفق الناس تنازلياً على التخلي عن بعض حرياتهم مقابل الأمن والنظام، وولد من هذا الاتفاق مفهوم الخير والشر والالتزام الأخلاقي. وفق هذه النظرية، فإن الأخلاق ليست حقيقة مطلقة نزلت من السماء، بل هي اصطلاح بشري ضروري لاستمرار الحياة المجتمعية. الصواب هو ما اتفق عليه المجتمع، والخطأ هو ما يخالف هذا الاتفاق. هذا الطرح يعزز فكرة أن الأخلاق قابلة للتغيير والتعديل بتغير بنود العقد الاجتماعي، وأنها تستمد قوتها من الإرادة الجماعية للناس وليس من إرادة إلهية، مما يفتح الباب أمام إمكانية وجود مجتمعات أخلاقية علمانية تماماً بلا دين.

## الفصل السادس

## نقد نظرية العقل الأخلاقي وحدود العقل البشري

بعد استعراض الحجج الفلسفية الداعمة لاستقلالية الأخلاق، ننتقل الآن إلى التحليل النقدي الذي يكشف ثغرات هذه النظريات وهشاشتها أمام واقع النفس البشرية. تبدأ المشكلة مع نظرية كانط العقلانية في أن العقل البشري ليس كياناً موحداً ثابتاً، بل هو عرضة للتأثر بالثقافة والهوى والمصلحة الشخصية. التاريخ يشهد بأن العقول البشرية توصلت إلى استنتاجات أخلاقية متضاربة تماماً في قضايا جوهرية مثل الرق وقتل الأبرياء، مما ينفي وجود أمر قطعي عقلي واضح لدى الجميع دون هدي ديني. العقل أداة رائعة للمحاكمة والتحليل، لكنه يفتقر إلى المحرك الذي يدفعه للالتزام بالخير عندما يتعارض مع الشهوة. كم من عقل أدرك الحق وعدل عنه هوى؟ العقل يعرف الطريق، لكن الإرادة الضعيفة تحتاج إلى سند أقوى من مجرد منطق بارد لتسير في هذا الطريق، وهذا السند لا يتوفر إلا في الخشية من الله والمحبة له.

## الفصل السابع

سقوط الأخلاق التطورية والنفعية في فخ النسبية  
والمصلحة

أما النقد الموجه للأخلاق التطورية والنفعية فهو أشد وطأة، لأنه يمس جوهر الأخلاق نفسها. إذا كانت الأخلاق مجرد آلية للبقاء أو حساباً للمنفعة، فإنها تفقد صفتها الإلزامية المقدسة. وفقاً للمنطق التطوري، إذا أصبح القتل أو الغش وسيلة أكثر فعالية لبقاء فرد أو جماعة في ظرف معين، فهل يصبح حينئذٍ خيراً أخلاقياً؟ الإجابة المنطقية عند التطوريين قد تكون نعم، وهذا ما يجرنا إلى هاوية نسبية مرعبة حيث لا فرق بين هتلر وغاندى سوى اختلاف الظروف البيئية. كذلك النفعية، بمعيارها الكمي للسعادة، قد تبرر تضحية الأقلية البريئة لصالح أغلبية مستفيدة، وهو ما ترفضه الفطرة السليمة والأخلاق الدينية جملة وتفصيلاً. الأخلاق الحقيقية تتطلب ثوابت لا تتزحزح بغرض البقاء أو زيادة الإنتاج، ثوابت تقول إن الظلم ظلمات ولو نفع، وإن العدل نور ولو ضر، وهذه الثوابت لا مصدر لها إلا الوحي الإلهي.

## الفصل الثامن

### فشل الوجودية والعقد الاجتماعي في توفير ضامن للاللتزام

تأتي الوجودية والعقد الاجتماعي ليكملا صورة الفشل في تأسيس أخلاق ملزمة. دعوة نيتشه وسارتر لخلق القيم فردياً تؤدي حتماً إلى فوضى قيمية وصراع أهواء، حيث تصبح أخلاق القوي هي السائدة، وتضيع حقوق الضعيف في ظل غياب معيار موضوعي أعلى من الإرادة البشرية. إذا كان كل إنسان يخلق قيمه، فمن يحكم بين قيم متصادمة؟ ومن يملك الحق في إدانة مجرم إذا كانت جريمة جزءاً من مشروعه الوجودي؟ أما العقد الاجتماعي، فهو هش بطبيعته، فالمتعاقدون قد ينقضون عهدهم متى ما ضعفت السلطة الرادعة أو تغيرت الموازين. التاريخ مليء بنقض العهود وانهارت العقود الاجتماعية بمجرد اختلال ميزان القوى. الأخلاق تحتاج إلى طرف ثالث علوي، مراقب لا يغفل، وقادر على المجازاة، يعلو على كل

العقود البشرية ويضمن احترامها، وهذا الطرف لا يمكن أن يكون إلا الله سبحانه وتعالى.

## الفصل التاسع

الحاجة إلى القداسة والمطلق في البنية الأخلاقية

السبب الجوهرى الذى يجعل الأخلاق المستحيلة دون دين هو حاجتها إلى القداسة والإطلاق. القيمة الأخلاقية لكي تكون رادعة حقاً ومحركة للضمير، يجب أن تُدرك على أنها مقدسة، نابعة من مصدر كامل غير قابل للخطأ والنقص. القيم الوضعية مهما علت تبقى بشرية الصنع، قابلة للنقد والتعديل والإلغاء، وبالتالي لا تثير في النفس هيبة الالتزام المطلق. حين يقول الإنسان لا تسرق لأنه عقد اجتماعي، فقد يسرق إذا أمن العقاب أو احتاج بشدة. لكن حين يقول لا تسرق لأنها أمر إلهي مقدس، فإن السرقة تصبح انتهاكاً لحرمت الله، وهنا يتحول الوازع من خارجي إلى داخلي عميق. الدين يضيف على الأخلاق هالة من التقديس تجعلها فوق مستوى المساومات الدنيوية،

وتجعل الالتزام بها مسألة مصير أبدي، وليس مجرد ترتيب مؤقت للعيش المشترك.

## الفصل العاشر

الدين كمصدر للثبات القيمي في عالم متغير

في عالم يتسم بالتغير السريع وتبدل المفاهيم، يوفر الدين المرساة الوحيدة للثبات القيمي. المجتمعات التي فصلت أخلاقها عن الدين تجد نفسها في دوامة لا نهاية لها من إعادة تعريف الخير والشر، فتصبح الزنا حرية شخصية، والشذوذ حقاً مدنياً، والإجهاض خياراً فردياً، بتغير أصوات الأغلبية أو ضغوط جماعات المصالح. هذا السيولان القيمي يولد ارتباكاً وجودياً وفقداناً للبوصلية لدى الأفراد، خاصة الشباب. في المقابل، تقدم الشريعة الإسلامية والتعاليم الدينية الصحيحة منظومة قيمية ثابتة لا تتأرجح مع أهواء العصر. الصدق، الأمانة، البر بالوالدين، العفة، كلها قيم ثابتة منذ بعثة الأنبياء إلى يوم القيامة. هذا الثبات يمنح المؤمن استقراراً نفسياً وثقة في طريقه،

ويعصم المجتمع من الانزلاق وراء كل موضة فكرية عابرة قد تدمر نسيجه الاجتماعي.

## الفصل الحادي عشر

### الرقابة الإلهية الداخلية والرقابة البشرية الخارجية

أحد أقوى الأدلة على ضرورة الدين للأخلاق هو قضية الرقابة. القوانين الوضعية والأعراف الاجتماعية تعتمد على رقابة خارجية: شرطة، كاميرات، قضاء، رأي عام. هذه الرقابة قاصرة بطبيعتها؛ فهي لا تستطيع مراقبة الخلوات، ولا النوايا، ولا الجرائم التي تُرتكب بعيداً عن الأعين. الإنسان العلماني قد يلتزم بالأخلاق خوفاً من السجن أو الفضيحة، لكن بمجرد زوال هذا الخوف، قد ينطلق في الرذيلة دون وجل. الدين وحده هو من يزرع الرقابة الداخلية القائمة على الإيمان بأن الله مطلع على السرائر، يسمع نجوى القلب ويرى خائنة الأعين. هذه المراقبة الإلهية الدائمة هي الضمان الحقيقي لاستقامة الإنسان في سره وعلانيته، وفي حضرته وخلوته. مجتمع المؤمنين مجتمع تراقبه ضمائر أفراده

قبل أن تراقبه أجهزة الدولة، وهذا هو المستوى الأعلى من الضبط الأخلاقي الذي لا يمكن تحقيقه بغير إيمان.

## الفصل الثاني عشر

### الجزاء الأخروي وتوازن ميزان العدالة

من الإشكاليات الكبرى التي تعجز الفلسفات الأرضية عن حلها هي مشكلة عدم تناسب الجزاء مع الفعل في الدنيا. كم من ظالم مات مترفاً دون أن ينال عقابه، وكم من مظلوم قضى حياته يعاني دون أن ينصفه أحد؟ في المنظور المادي البحت، قد يبدو الالتزام بالأخلاق خسارة فادحة للملتزم، وانتحاراً بطيئاً في وجه الأقوياء عديمي الضمير. هذا الواقع قد يدفع العقلاني البحت إلى Conclusion أن الغباء هو أن تكون أميناً في عالم الغادرين. هنا يأتي الدين ليكمل المعادلة ويفتح أفقاً أوسع للعدالة يتجاوز حدود الحياة الدنيا. الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب يضمن أن كل ذرة خير ستُجزى، وكل مثقال شر سيُعاقب، إما

في الدنيا أو في الآخرة حيث العدل المطلق. هذا اليقين هو الحافز الأقوى الذي يجعل المؤمن يتمسك بالأخلاق حتى لو كلفه ذلك حياته، لأنه يعلم أن الفوز الحقيقي ليس في الدنيا الفانية بل في الآخرة الباقية.

## الفصل الثالث عشر

### شمولية الأخلاق الدينية واتساع دائرة الرحمة

تمتاز الأخلاق المستمدة من الدين بشمولية نادرة الوجود في الأخلاق الوضعية. الأخلاق الأرضية غالباً ما تتوقف عند حدود القبيلة، أو الوطن، أو الدين، أو المصلحة المشتركة. نجد أن الإنسان قد يكرم أبناء جلدته ويغش الغرباء، أو يرحم صديقه ويظلم عدوه. أما الدين الإسلامي والمسيحية في أصولهما الصحيحة، فيدعوان إلى أخلاق كونية تتجاوز كل الحدود الضيقة. الإسلام يأمر بالعدل مع العدو، وبالإحسان إلى الجار غير المسلم، وبالرحمة بالعالمين أجمعين، وحتى بالحيوان والجماد. هذه الشمولية تستمد قوتها من مفهوم الاستخلاف والعبودية لله جميعاً، فالجميع

خلق الله والجميع عبده، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. هذا الاتساع في دائرة الأخلاق يسمو بالإنسان فوق العصبية الضيقة، ويؤسس لسلام عالمي حقيقي قائم على المحبة في الله، وهو ما عجزت عنه كل المواثيق الدولية الوضعية.

## الفصل الرابع عشر

تهذيب الغرائز وتحويل الطاقة من الهدم إلى البناء

خطأ جسيم تقع فيه النظريات غير الدينية وهو النظر إلى الغرائز البشرية كشیطان يجب كبته أو إطلاق العنان له. الدين يأتي بمنهجية فريدة هي التهذيب والتوجيه. الغريزة الجنسية، غريزة الغضب، غريزة التملك، هي طاقات هائلة خلقها الله في الإنسان لغايات نبيلة. الدين لا يقتل هذه الغرائز، بل يضعها في قنواتها المشروعة التي تحقق الإشباع الروحي والجسدي دون ضرر. الزواج يحول الشهوة الحيوانية إلى مودة ورحمة وبناء أسرة مستقرة، والجهاد في سبيل الله يحول غريزة القتال إلى دفاع عن الحق

والعدل، والزكاة تحول حب المال إلى مواساة وتكافل. بدون هذا التوجيه الإلهي الحكيم، تتأرجح المجتمعات بين قمع جائر يولد الانفجارات، وإطلاق مفسد يدمر الأخلاق. الدين هو المهندس البارع الذي يحول البركان المدمر إلى طاقة تنير المنازل وتدفع عجلة الحضارة.

## الفصل الخامس عشر

### الأخلاق كعبادة: البعد الروحي للسلوك الحسن

في المنظور الديني، يرتقي السلوك الأخلاقي من كونه مجرد واجب اجتماعي أو التزام قانوني إلى مقام العبادة التي يُثاب عليها فاعلها. عندما يساعد المسلم فقيراً ابتغاء وجه الله، أو عندما تصدق المرأة خشية من الله، فإن هذه الأفعال تتحول إلى عبادات تقربهم إلى خالقهم، مثل الصلاة والصيام. هذا الربط الوثيق بين الأخلاق والعقيدة يعطي دفعة روحية هائلة للالتزام. المؤمن لا يفعل الخير فقط لأنه نافع للمجتمع، بل لأنه يحب الله ويرجو رضاه. هذا الحب الإلهي هو محرك جبّار يتفوق على كل الحسابات المادية. جعل

الدينُ حسنُ الخلق من كمال الإيمان، وجعل أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق، مما يمنح الأخلاق وزناً وجودياً لا مثيل له. هذه النظرة transform تحول الحياة اليومية كلها إلى ميدان للتنافس في الخير، حيث كل تفاعل إنساني فرصة لكسب رضا الله.

## الفصل السادس عشر

### دور الأنبياء كنماذج حية وقدوات عملية

لم تكتفِ الأديان السماوية بالنصوص النظرية المجردة، بل قدمت نماذج بشرية كاملة جسدت الأخلاق في أرقى صورها عبر الأنبياء والمرسلين. حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت قرآناً يمشي على الأرض، تجسد فيها الصدق، الأمانة، الرحمة، الصبر، العفو عند المقدرة. قصص الأنبياء توفر للإنسان نماذج حية يقتدي بها في مواقف الحياة المختلفة، مما يجعل الأخلاق ملموسة وقابلة للتطبيق. الإنسان بطبعه ميّال للتقليد والاقتراء، ووجود إنسان كامل أو معصوم

أو عالي الدرجة من التقوى يمثل هدفاً سامياً يسعى إليه. الفلسفات الوضعية تقدم مبادئ باردة، لكن الدين يقدم رجالاً عاشوا هذه المبادئ وبذلوا أرواحهم من أجلها. هذا البعد القدواتي هو سر انتشار الأخلاق الدينية وتمكنها من القلوب بشكل لا تستطيع أي نظرية فلسفية منافسته.

## الفصل السابع عشر

### انهيار الأمم وفقدان البوصلة الدينية

التاريخ سجل حافل بالشواهد على أن انهيار الحضارات والأمم بدأ دائماً بانهيار منظومتها الأخلاقية نتيجة الابتعاد عن الدين. عندما تضعف الرابطة الإيمانية في مجتمع، تنتشر الأنانية، ويفشو الفساد، وتتحول العلاقات الإنسانية إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف. لا تنفع القوانين الصارمة ولا الجيوش الجرارة في حماية مجتمع فقد وازة الداخلي وضميره الحي. سقوط الإمبراطورية الرومانية، وانهيار حضارات قديمة عديدة، كانت نهايتها الأخلاقية تسبق نهايتها السياسية

بقرون. الدين هو الغراء الذي يجمع شمل المجتمع، وهو الحصن الذي يحميه من التفكك الداخلي. المجتمعات التي تحاول بناء أخلاقها على أنقاض الدين تبني قصوراً على رمال متحركة، سرعان ما تجرفها سيول الأهواء والمصالح. البقاء للأمم المتمسكة بحبل الله المتين، المهتدية بهدي أنبيائها.

## الفصل الثامن عشر

### خطر النسبية الأخلاقية والانزلاق نحو الهاوية

أخطر نتيجة لفصل الأخلاق عن الدين هي الوقوع في فخ النسبية الأخلاقية المدمرة. إذا لم يكن هناك معيار إلهي مطلق يحدد الحق من الباطل، فمن يملك الحق في التحديد؟ هل هي الأغلبية؟ لكن الأغلبية قد تظلم كما حدث في جرائم النازية التي أيدتها أغلبية الشعب الألماني آنذاك. هل هي النخبة المثقفة؟ لكن النخبة قد تنحرف وتخدم مصالحها. النسبية تفتح الباب على مصراعيه لكل أنواع الانحراف تحت شعارات براقية مثل الحرية الفردية وحقوق الإنسان بمفاهيمها المشوهة.

نرى اليوم في الغرب كيف انزلت المجتمعات من  
تحريم الزنا إلى تقنينه، ثم إلى تقنين الشذوذ، ثم إلى  
تشويه الفطرة البشرية بعمليات تغيير الجنس. هذا  
الانزلاق لا يتوقف عند حد، وكل جيل يكسر تابوهات  
الجيل السابق. فقط المرجعية الدينية الثابتة تستطيع  
وضع خط أحمر مقدس لا يجوز تجاوزه، وتحفظ البشرية  
من الانتحار الأخلاقي.

## الفصل التاسع عشر

### الأخلاق في زمن الفتن: الدين كملاذ وعصمة

في الأزمنة التي تشتد فيها الفتن، وتغيب فيها  
الحقائق، وتنتشر فيها الشهوات، يكون الدين هو الملاذ  
الوحيد والعصمة الوحيدة للمؤمن. حينما يصبح التمسك  
بالأخلاق فضيلة غريبة في مجتمع منحرف، يحتاج  
الإنسان إلى سند إيماني قوي ليثبت على مبادئه  
رغم السخرية والإيذاء. الدين يزود المؤمن بالصبر  
والثبات، ويجعله ينظر إلى ابتلائه في تمسكه بالحق  
كأجر ومثوبة من الله. التاريخ يثبت أن الأقليات المؤمنة

التمسكة بدينها كانت capas علي الحفاظ علي إنسانيتها وأخلاقها في أحلك العصور، بل وكانت بذرة الإصلاح التي أعادت الحياة للمجتمعات الميتة. بدون هذا السند الإيماني، يذوب الفرد في التيار العام، وينجر وراء القطيع خوفاً من الوحدة أو الطرد الاجتماعي، مشاركاً في الجريمة بصمته أو بفعله. الدين هو نور المؤمن في ظلمات الفتن.

## الفصل العشرون

الخاتمة: اليقين بأن الدين هو أساس الأخلاق

ختاماً لهذه الرحلة الفكرية، يتجلى اليقين الجازم بأن الأخلاق الحقيقية، الثابتة، الملزمة، الجامعة، لا يمكن أن توجد ولا تستمر دون مرجعية دينية سماوية. لقد أثبتنا فشل كل المحاولات الفلسفية لتأسيس أخلاق مستقلة على العقل أو المصلحة أو التطور، وكشفنا أنها تؤدي حتماً إلى النسبية والانهايار. الدين هو المصدر الوحيد الذي يمنح الأخلاق قدسيتها، ويوفر الضمان للالتزامها عبر الرقابة الداخلية والجزاء الأخروي،

ويقدم النموذج العملي عبر الأنبياء، ويحفظ ثباتها في وجه عواصف التغيير. إن الدعوة إلى فصل الأخلاق عن الدين هي دعوة وهمية تخفي وراءها رغبة في التحرر من الوازع الإلهي للانطلاق في الشهوات. مستقبل البشرية وسعادتها لا يكمن في الابتعاد عن السماء، بل في العودة إليها، والاعتصام بحبل الله المتين. إن التزامنا بالدين هو التزامنا بإنسانيتنا الحقيقية، وهو الضمان الوحيد لاستمرار نور الفضيلة في هذا الكون.

الفهرس

المقدمة

الفصل الأول نظرية العقل الأخلاقي عند كانط  
والاستقلال عن الوحي

الفصل الثاني الأخلاق التطورية والنظرة الداروينية  
للسلوك الاجتماعي

الفصل الثالث النفعية ومبدأ السعادة الأكبر كأساس

## أخلاقي وضعي

الفصل الرابع الوجودية والحرية المطلقة في خلق القيم

الفصل الخامس العقد الاجتماعي والأساس التعاقدية  
للأخلاق

الفصل السادس نقد نظرية العقل الأخلاقي وحدود  
العقل البشري

الفصل السابع سقوط الأخلاق التطورية والنفعية في  
فخ النسبية والمصلحة

الفصل الثامن فشل الوجودية والعقد الاجتماعي في  
توفير ضامن للالتزام

الفصل التاسع الحاجة إلى القداسة والمطلق في  
البنية الأخلاقية

الفصل العاشر الدين كمصدر للثبات القيمي في عالم  
متغير

الفصل الحادي عشر الرقابة الإلهية الداخلية والرقابة  
البشرية الخارجية

الفصل الثاني عشر الجزء الأخرى وتوازن ميزان  
العدالة

الفصل الثالث عشر شمولية الأخلاق الدينية واتساع  
دائرة الرحمة

الفصل الرابع عشر تهذيب الغرائز وتحويل الطاقة من  
الهدم إلى البناء

الفصل الخامس عشر الأخلاق كعبادة: البعد الروحي  
للسلوك الحسن

الفصل السادس عشر دور الأنبياء كنماذج حية وقنوات  
عملية

الفصل السابع عشر انهيار الأمم وفقدان البوصلة  
الدينية

الفصل الثامن عشر خطر النسبية الأخلاقية والانزلاق  
نحو الهاوية

الفصل التاسع عشر الأخلاق في زمن الفتنة: الدين  
كملاذ وعصمة

الفصل العشرون الخاتمة: اليقين بأن الدين هو أساس  
الأخلاق

تم بحمد الله وتوفيقه

تأليف دكتور محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقير والمؤلف القانوني  
والمحاضر الدولي في القانون

حقوق النسخ والطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف